

تقسيم العمل، اليد الخفية و الحافز الاقتصادي

بين ابن خلدون و ادم سميث

د/ الطيب داودي

كلية العلوم الاقتصادية والتسيير

جامعة محمد خيضر بسكرة

Résumé :

L'impulsion ou le stimulus économique est le moteur de l'économie capitaliste, Adam Smith l'a qualifié de « main invisible ». Selon cette expression, cette main invisible motive et incite impulse l'individu à déployer plus d'effort pour accumuler plus de richesse lui permettant le développement et la prospérité.

Ibn Khaldoun, bien avant Adam Smith de quatre siècles, avait soulevé ce rôle fondamentale de l'impulsion économique sur le chemin du développement et citoyenneté mais bien avec son propre approche.

Dans ce papier nous menons une réflexion comparative entre les deux approches.

ملخص

الحافز الاقتصادي هو المحرك الرئيسي في الاقتصاد الرأسمالي، ولقد أطلق عليه آدم سميث تسمية "اليد الخفية"، حيث استخلص أن هناك يد خفية تقود الفرد وتدفعه إلى بذل الجهد للزيادة من الثروة التي توصله إلى التقدم والرفي .

وابن خلدون قبل آدم سميث بأربعة قرون يعتبر الحافز الاقتصادي أساس النمو المؤدي إلى التقدم والتحضر. وهذا ما سنناقشه في هذه الدراسة المقارنة.

مقدمة :

إذا كان تقسيم العمل واليد الخفية عند آدم سميث من أهم الموضوعات المدروسة التي نال بها آدم سميث رتبة الريادة فإن ابن خلدون قد أفاض قبله بأربعة قرون في نفس الموضوع، فكان التعاون أو التخصص والحافز الاقتصادي من بين الكثير مما قدمه .

1 - مفهوم العمل عند آدم سميث.

العمل البشري في نظر آدم سميث هو مصدر الثروة، بخلاف ما ساد في أوروبا من اختلافات حول هذا المصدر، ولعل آدم سميث توصل إلى هذه النتيجة بعد الرحلة التي قادته إلى فرنسا والمناقشات التي دارت بينه وبين رواد المدرسة الطبيعية ولا سيما راندها كسناي، وتيرجو وغيرهم.

وقد انطلق آدم سميث في تعريفه للعمل كمصدر من مصادر الثروة قائلاً: "العمل السنوي الذي يقوم به كل شعب هو الرصيد الذي يمده بكافة ضروريات الحياة وكمالياتها مما يستهلكه كل سنة، وتتكون دائماً إما من الناتج المباشر لذلك العمل أو مما يشتريه ذلك الناتج من الخارج".¹

ولأول مرة يقر الفكر الاقتصادي الأوربي على يد آدم سميث بأن العمل الإنساني هو مصدر الثروة الحقيقية للأمة، هذه العبارة التي أحدثت انقلاباً جذرياً في دراسات الاقتصاد السياسي في العصر الحديث، سبقتها بأربعة قرون عبارة ابن خلدون التي تبين بكل وضوح بأن العمل الإنساني هو مصدر كل ثروة ولو كانت في تناوله وابتغائه.

يقول ابن خلدون: "أعلم أن الكسب إنما يكون بالسعي في الاقتناء والقصد في التحصيل فلا بد في الرزق من سعي وعمل ولو في تناوله واقتنائه... فلا بد من الأعمال الإنسانية في كل مكسوب ومتمول".²

ويؤكد آدم سميث منذ البداية أن الثروة التي تنتج بكل اختلافاتها ترجع إلى العمل الإنساني، وليس إلى قوى الطبيعة كما كان سائداً في الفكر الاقتصادي السابق له، وبدون عمل الإنسان تظل هذه القوى كالأرض وما بباطنها من كنوز وما فوقها من خيرات غير ذات نفع، فهي عبارة عن موارد ومواد أولية لا يستطيع أن تشبع رغبات وحاجات البشر

إلا إذا بذل فيها عمل إنساني على سبيل الاستغلال واستخراج المنافع. والعمل في نظر آدم سميث هو العمل الكلي للمجتمع.

إن الدخل السنوي الذي يقصده آدم سميث هو نتيجة تعاون كافة الشعب بطبقاته الزراعية والصناعية وغيرها... والثروة تتعاطم طبقا لنوعية العمل الذي يقدمه أفراد الأمة وهو يكمن في العلاقة بين العمل الكلي وحجم السكان.

1-1 . صناعة الدبابيس مرتكز آدم سميث في تقسيم العمل.

يقينا أن زيارة آدم سميث لمصنع الدبابيس، وملاحظاته للقيام بالعملية الإنتاجية في هذا المصنع أوحى له تلك الفكرة عن زيادة الإنتاجية عن طريق تقسيم العمل، هذه الملاحظة التي جعلت من الفكرة التي استقاها من هذا المصنع الصغير الذي خلده آدم سميث وخلد هو آدم سميث حيث ساهمت فكرة تقسيم العمل في الشهرة الكبيرة التي اشتهر بها.

ونطرح فكرة آدم سميث كما أوردها حول أثر تقسيم العمل في زيادة الإنتاجية.

يقول آدم سميث: "إن العامل الذي لم يعد الإعداد اللازم لهذا العمل الذي جعله تقسيم العمل صناعة قائمة بذاتها ولم يألف استخدام الآلات التي تستخدم في هذه الصناعة، قد لا يمكنه أن ينتج أكثر من دبوس واحد في اليوم، ولكنه بعد فترة من الممران والتدريب يستطيع أن ينتج أكثر من عشرين دبوسا في أحسن الظروف، ولكن هذه الصناعة لم تعد صناعة واحدة، وإنما تفرعت إلى صناعات عديدة يكاد بعضها أن يكون صناعات مستقلة قائمة بذاتها، فهناك عمال يختصون بعملية سبك الأسلاك، وآخرون يمدونها مستقيمة، وغيرهم يقومون بتقطيعها، وفريق رابع بسن أطرافها، وخامس بوضع رؤوسها، وهذه العملية وحدها ينقسم إلى عمليات متفرقة، وفريق سادس يقوم بلفها في الورق ووضعها في الصناديق، وهكذا حتى صارت صناعة الدبابيس موزعة على ثماني عشرة عملية مختلفة يقوم بكل واحدة منها فريق متخصص من العمال، بينما توجد مصانع يقوم الفريق الواحد من العمال فيها بأداء اثنتين أو أكثر من العمليات"³.

هكذا يبين آدم سميث أثر تقسيم العمل، فبدون تخصص وبدون تعاون فقد لا ينتج العامل أكثر من دبوس واحد في اليوم، ولكن بعد التخصص عن طريق التدريب وتكرار التجربة

خلال العمليات الإنتاجية فإن مثل هذا العامل قد يتضاعف إنتاجه إلى عشرين ضعفاً في أحسن الظروف، ولكن عندما يدخل تقسيم العمل في الصناعة ويصبح الكثير يتعاون في عملية واحدة فإن هذا يؤدي إلى مضاعفة الإنتاج عن طريق زيادة الإنتاجية التي تظهر مع تقسيم العمل.

يقول آدم سميث: "ولقد أتاحت الفرصة لمشاهدة مصنع صغير من هذه المصانع الأخيرة يستخدم عشرة عمال يقوم بعضهم بأكثر من عملية واحدة في هذه الصناعة، وبالرغم من أن هذا المصنع لم يستخدم سوى الآلات اللازمة جداً، إلا أنه كان في إمكانه أن ينتج اثني عشر رطلاً من الدبابيس أي ثمانية وأربعين ألف دبوس في اليوم إذا اشتغل العمال بجد ونشاط، هذا بينما لا يستطيع عشرة عمال غير مدربين ولا مؤهلين لهذه الصناعة أن ينتجوا إذا ما اشتغل كل منهم على حده أكثر من مائتي دبوس في اليوم في أحسن الأحوال، ولا أكثر من عشرة دبابيس في أسوأ الظروف."⁴

إذن فقد بينت الملاحظة الميدانية لآدم سميث كيف يتضاعف الإنتاج وتتعاظم الإنتاجية لمجرد التأهيل والتخصص وتقسيم العمل، فمن دبوس واحد في اليوم إلى عشرة بالنسبة للعمال غير المؤهلين في أسوأ الظروف تتضاعف هذه النسبة عند تحسين الظروف وملاءمتها لنفس الصنف من العمال لتبلغ مائتين دبوس، غير أن هذه النسبة تتضاعف بشكل رهيب عندما ترتفع درجة التخصص وتقسيم العمل لتبلغ أربعة آلاف وثمانمائة دبوس في اليوم لكل عامل، أي ما يعادل ثمانية وأربعين ألف دبوس لمجموع العشرة عمال المؤهلين والمدربين مع العلم أنهم لا يستعملون إلا الآلات اللازمة جداً.

هذه المضاعفة الكبيرة في الإنتاج التي لاحظها آدم سميث في هذا المصنع يرجعها إلى أسباب من أهمها:

أولاً: زيادة مهارة العامل عند اقتصره على القيام بمهمة إنتاجية واحدة.

ثانياً: تركيز وقت العامل بكامله على مهمة إنتاجية واحدة.

ثالثاً: الإبداع والاختراع الذي يوحى تخصيص العمل نتيجة إعادة التجربة وتكرارها.

غير أن آدم سميث لاحظ بأن الزيادة في الإنتاج عن طريق تقسيم العمل لا بد أن يصاحبه زيادة في الطلب، أي أن تكون هناك سوق تتسع لثمانية وأربعين ألف دبوس في

اليوم، أي أن تقسيم العمل محدود بحجم السوق، إلا أن الهبة العظيمة التي هبها تقسيم العمل هي تبسيط العمل الشاق وميزته تكمن فيما يسميه آدم سميث بذلك الرخاء الشامل الذي يمتد حتى يصل إلى أدنى الناس مرتبة.

ويضرب آدم سميث مثالا يبين فيه التعاون الناتج عن تقسيم العمل فيقول: "لاحظ معيشة أكثر الصناع أو عمال اليومية في بلد متحضر ومزدهر وسوف ترى أن عدد الذين استخدم جزء وإن كان صغيرا من جهودهم في تزويده بهذا العيش يفرق كل حساب، فالمعطف المصنوع من الصوف مثلا، والذي يكسو جسد العامل اليومي وإن بدا خشنا وغلظا، هو نتاج العمل المشترك من جانب عدد كبير من العمال، فالراعي، ومصنف الصوف، والممشطة والصباغ والملح والغزال، والنساج، والقصار والمرتب، وغيرهم كثيرين هؤلاء جميعا يجب أن يضموا فنونهم المختلفة، كي يتموا حتى مثل هذا الإنتاج الساذج، وكم عدد التجار والحمالين الذين كان من الواجب استخدامهم إلى جانب هؤلاء... وكم مقدار التجارة والملاحة.. وكم عدد بناء السفن والبجارة وصانعي الشراع والحبال.

ولو فحصنا بالطريقة ذاتها أجزاء ملبسه وأثاثه المنزلي والقميص الكتاني الخشن الذي يرتديه... والأحذية التي تغطي قدميه وغيره... أقول لو فحصنا كل تلك الأشياء.. فسوف ندرك أنه بدون مساعدة وتعاون الآلاف الكثيرة فلن يتمكن أحقر شخص في بلد متحضر من تزويده حتى طبقا نتصوره باطلا جدا، بالأسلوب السهل البسيط الذي جرت العادة أن يعيش وفقا له."⁵

وبالرغم من أنني سأقوم بدراسة تقسيم العمل عند ابن خلدون في الفروع القادمة إلا أنني أريد أن أقابل عباراته القادمة مع هذه العبارة لأدم سميث وذلك لتقارب الفكرتين وتشابههما شيئا كبيرا.

يقول ابن خلدون: "...إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة على تحصيل حاجاته من ذلك الغذاء غير موفية له بمادة حياته، ولو فرضنا منه أقل ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من الحنطة مثلا فلا يحصل له إلا بعلاج كثير من الطحن والعجن والطبخ وكل واحدة من هذه الأعمال الثلاثة يحتاج إلى مواعين وآلات لا تتم إلا بصناعات متعددة من حداد ونجار وفاخوري، وهب أنه يأكله حبا من غير علاج فهو أيضا يحتاج في تحصيله حبا

إلى أعمال أخرى أكثر من هذه من الزراعة والحصاد والدراس، ويحتاج كل واحد من هذه إلى آلات متعددة وصناعات كثيرة.. ويستحيل أن تفي بذلك كله أو بعضه قدرة الواحد فلا بد من اجتماع القدر - جمع قدرة- الكثير من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف".⁶

ويستنتج من عبارتي آدم سميث وابن خلدون بأن المنافع لا تحصل إلا بالتعاون وتقسيم العمل، ورغم الفاصل الزمني الذي يفصل بين المفكرين وهو أربعة قرون إلا أن التحليل واحد والنتيجة المتوصل إليها واحدة وتكاد تكون الألفاظ متقاربة.

وهذه دلالة واضحة على علمية التفكير الاقتصادي الخلدوني، وإذا كان موضوع تقسيم العمل من بين أهم المواضيع التي جعلت من آدم سميث رائدا من رواد الاقتصاد ومؤسسته، فإنه من الموضوعية والإنصاف أن يقيم ابن خلدون بمثل هذا التقييم مع احتفاظه بالسبق التاريخي.

ويرى كل من ابن خلدون و آدم سميث أن السبب الحقيقي في تقسيم العمل هو زيادة الإنتاج وتكوين الفوائض من أجل المبادلة والمقايضة مع إنتاج أناس آخرين أو دول أخرى، وبهذا يزيد الرخاء والازدهار المرغوب من كل البشر، وهكذا وجد آدم سميث أن تقسيم العمل، هو المحور الأساسي لثروة الأمة، يستند في التحليل الأخير إلى نزعة طبيعية لدى الأفراد للتحرك بفضل المصلحة الفردية.

1-2. اليد الخفية محرك الحياة الاقتصادية عند آدم سميث.

ينطلق آدم سميث من إشكاليتان كبيرتان، أولهما هي كيفية الكشف عن الجهاز الذي يحفظ تماسك المجتمع، أي كيف يمكن لجماعة كل فرد فيها يسعى إلى تحقيق مصلحته الذاتية عن طريق العمل الخاص الذي يزاوله بحيث يكون متفقا مع حاجات المجموعة؟

وثانيهما هو كيف ينجح المجتمع في أداء هذه المهام اللازمة لبقائه بالرغم من عدم وجود سلطة تخطيط مركزية ومن انتفاء التأثير المؤدي إلى الانتظام والمتولد من التقاليد المتوارثة من القديم؟

وفي الإجابة عن هاتين الإشكاليتين يتوصل آدم سميث إلى آلية بواسطتها تسير مصالح الناس الخاصة وأهواءهم في الاتجاه الأكثر اتفاقاً مع مصلحة المجتمع، هذه الآلية هي التي أطلق عليها آدم سميث مصطلح "اليد الخفية".

إن اليد الخفية عند آدم سميث هي تلك القوانين والآليات التي تمنع شيوع الفوضى والظلم عندما يسعى كل فرد إلى تحقيق مصلحته الخاصة، وهذه الأخيرة في نظر آدم سميث هي الكفيلة بقيام نظام دقيق هو نظام السوق، الذي يسير وفقاً لقوانين محكمة التي تعمل على توفير حاجات ورغبات الناس بفعالية كبيرة وبأسعار تنافسية، غير أن قوانين السوق التي تحقق بها هذه الآلية "اليد الخفية" هدفها، لا تعدو أن تكون مجرد جزء من البحث الذي يقوم به آدم سميث، فهناك إشكالية أخرى تشغل باله وهي: "إلى أين يسير المجتمع؟"⁷

إن آدم سميث وبعض الرواد الآخرين، كانوا ينظرون إلى المجتمع على أنه كائن له حياته الخاصة، ولذلك فههدف علم الاقتصاد تبعاً لهذا هو الكشف عن الظواهر الاقتصادية، ومنها تجنب المجتمع ما يمكن أن يعرقل سيره الطبيعي، وفي رأي سميث أن الجهاز الذي يجبر الفرد على أن يسير جنباً إلى جنب مع غيره من الأفراد، يؤثر في الجهاز الذي يتغير به المجتمع.

ويستخلص سميث بأن قوانين السوق، بسيطة في أساسها، وهي تبين بنوع خاص كيف أن دافع المصلحة الفردية الذاتية في بيئة من أفراد يحركهم هذا الدافع بالمثل يؤدي إلى المنافسة، كما تبين كذلك كيف تؤدي المنافسة إلى توفير السلع التي يحتاج إليها المجتمع بالكميات التي يرغب فيها، وبالأسعار التي هو باستعداد على دفعها.

فالمصلحة الذاتية في نظر آدم سميث هي القوة المحركة "اليد الخفية" فهي التي تدفع الأفراد إلى العمل الذي يحققونه عن طريقة الربح الذي يسعون وراءه، وأما الشيء الذي يلجهم على فرض الأسعار الفاحشة هو المنافسة.

ويضرب آدم سميث مثالا يبين فيه كيف تعمل القوة المحركة في خفاء لتحقيق الانسجام بين ما يطلبه الفرد لربح لنفسه وبين ما يحققه من جراء هذا السعي للمجتمع فيقول: "لسنا نتوقع عشاءنا من كرم الجزار أو صانع الخمر أو الخباز، ولكننا نتوقعه من رعايتهم لمصلحتهم الذاتية، إننا لا نخطب إنسانيتهم وإنما نخطب حبهم لذواتهم، ولا نحدثهم أبداً عن الأشياء الضرورية لنا، وإنما عن المزايا التي يحصلون عليها".⁸

ويضيف قائلاً: "إن الفرد في هذه الحالة كما في حالات أخرى كثيرة تقوده يد خفية نحو تحقيق غاية لم تكن جزءاً من مقصده...وأنا لم أعرف أبداً أن خيراً كثيراً يحقق على أيدي من يسعون إلى الخير العام، فذلك في الحقيقة تصنع لبس شائعاً بين التجار ولا يحتاج إتناؤهم عليه سوى إلى استخدام كلمات قليلة للغاية".⁹

واليد الخفية لها في نظر الكثيرين رنين صوفي غامض فهي قوة روحية تساند السعي إلى تحقيق المصلحة الذاتية وتوجيه الناس في السوق نحو أسلم الغايات، فالشخص الذي يجمع الثروة لنفسه بسبب مصلحته الذاتية أصبح عاملاً من أجل المصلحة العامة.

2- تقسيم العمل والحافز الاقتصادي عند ابن خلدون.

يرى ابن خلدون أن العمران يوفر العمل الإنساني، حيث تكثر الحركة وبتزايد الترف، وبتزايد معه الطلب الفعال مما يؤدي إلى زيادة الإنفاق، وهذه الأخيرة تؤدي إلى ارتفاع الأرباح مما يشجع على زيادة الإنتاج مما يؤدي إلى زيادة الطلب على العمل البشري مما يحقق الترف الذي يقود إلى العمران، وهكذا تتكامل حلقات الحركة الاقتصادية وتؤدي كل حلقة إلى حلقة جديدة إلى أن تكتمل.

وابن خلدون يعتقد بأن عوامل النمو لا تتكامل في حركة متصلة متكاملة إلا إذا كان هناك تعاون قائم بين الناس وصاحب هذا التعاون وتوزيع للأعمال حسب المؤهلات الفكرية والنفسية والقدرات العلمية والجسمانية، ولا يتم هذا التفاعل المؤدي إلى التقدم والازدهار أي الترف بلغة ابن خلدون إلا إذا كان هناك حافز يدفع الناس للتضحية بجهودهم والإكثار من الأعمال لتحقيق أهدافهم الفردية والعامة وستتناول هذا في النقاط الآتية:

2-1. تقسيم العمل عند ابن خلدون.

من الملفت للنظر أن ابن خلدون قد استعمل مصطلح التعاون بدلاً من تقسيم وتخصيص العمل، ويرى الدكتور شوقي دنيا أن ابن خلدون قد وفق في اختيار مصطلح التعاون أيما توفيق ويبرر ذلك بأن مصطلح التعاون هو مصطلح إسلامي أصيل، وهو من جهة ثانية معنى التخصيص وتقسيم العمل، وهو من جهة ثالثة يشع بدلالات وإيحاءات

أخلاقية واجتماعية ما لا يشعه تقسيم العمل، الذي هو أقرب ما يكون مجرد عمليات فنية واقتصادية.¹⁰

إن ابن خلدون في تحليلاته المختلفة لتقسيم العمل يراه أمراً ضرورياً في حياة الإنسان، لأن هذا الأخير عاجز عن إشباع حاجاته بمفرده لقلة إمكانياته، ويبين ابن خلدون أن التعاون الذي يتضمن التخصص وتقسيم العمل يؤدي إلى زيادة الإنتاج والثروة، وهذا يؤدي إلى زيادة اليد العاملة عن طريق زيادة السكان وزيادة الأخيرة في اليد العاملة تكون أكثر تخصص وتأهيل فيزداد مرة أخرى الإنتاج ويفيض وهكذا تنمو الأعمال والصناعات ويزدهر البلد ويتحضر.

يقول ابن خلدون: "قد عرف وثبت أن الواحد من البشر غير مستقل بتحصيل حاجاته في معاشه، وأنهم متعاونون جميعاً في عمرانهم ذلك... والحاجة التي تحصل بتعاون طائفة منهم تسد ضرورة الأكثر من عددهم أضعافاً، فالقوت من الحنطة مثلاً لا يستقل الواحد بتحصيل حصته منه، وإذا انتدب لتحصيله الستة أو العشرة من حداد ونجار للآلات وقائم على البقر وإثارة الأرض وحصاد السنبل وسائر مؤن الفلح وتوزعوا على تلك الأعمال أو اجتمعوا، وحصل بعملهم ذلك مقدار من القوت فإنه حينئذ قوت لأضعافهم مرات، فالأعمال بعد الاجتماع زائدة على حاجات العاملين وضرورياتهم، فأهل المدينة أو المصر إذا وزعت أعمالهم كلها على مقدار حاجاتهم وضرورياتهم اكتفى فيها بالأقل من تلك الأعمال، بقيت الأعمال كلها زائدة على الضروريات فتصرف في حالات الترف وعوائده وما يحتاج إليه غيرهم من أهل الأمصار ويستجلبونه منهم بأعواضه وقيمته فيكون لهم بذلك حظ من الغنى".¹¹

ويتبين من هذا أن العملية الإنتاجية تتألف من حلقات متشابكة ومتراكبة ولذلك فإن القيام بها يخرج عن طاقة الواحد من البشر، ومن هنا يجب التعاون بين مجموعة من الناس وقيام كل واحد منهم بدور معين.

ويتوصل ابن خلدون إلى نتيجة تقسيم الناتج عن تعاون الناس وهي مضاعفة الناتج نتيجة توزيع المواهب المكتسبة من جراء هذا التقسيم، لأن الإنسان في نظر ابن خلدون إذا تكونت تديه ملكة في صنعة أو حرفة معينة فقل أن يجيد معها ملكة أخرى

تكون مساوية لسابقتها، وهذا مما يدل أن المواهب أو الملكات يتم عن طريق التعلم ولا سيما في اكتساب المهارات عن طريق تقسيم العمل.

إن ابن خلدون ذهب إلى أبعد حد في تقسيم العمل، فمن تقسيمه في العملية الإنتاجية الواحدة إلى عملية التخصص الجغرافي أي تخصص بعض البلاد في صناعات معينة، أي التركيز على صناعات معينة لكل بلد تبعاً للمقدرات هذا البلد ومؤهلات سكانه، ويرى بأن رغم هذا التخصص فإن الفوائض ستنتقل عن طريق التصدير.

وهذا ما يبين بأن ابن خلدون قد تعرف على فكرة التخصص والتعاون الدولي، والذي ظهر في وقتنا الحاضر بشكل واسع، كالاتحاد الأوروبي، واتحاد دول جنوب شرق آسيا، والمجلس الخليجي والاتحاد المغاربي، وغيرها من الاتفاقات الثنائية والمتعددة التي تعقد بين الدول من أجل التعاون والتخصص ونفوذ المنتجات بينها وفق قانون المنافذ.

وبالإضافة إلى هذا فإن تقسيم العمل في نظر ابن خلدون يؤدي إلى زيادة السكان التي تؤدي إلى تأمين العدد الكافي من القوى العاملة اللازمة للتخصص، ومن ناحية أخرى تأمين الطلب الفعال على المنتجات المتزايدة بسبب تقسيم العمل والنفوذ بين البلدان والدول عن طريق تصريف الفوائض أو ما يسمى بقانون المنافذ، حيث لمح ببصره الثاقب ما للمنافذ الخارجية من أهمية فائقة لتدعيم سعة السوق وقدرته على امتصاص الناتج المتزايد، وهذه هي نفس الفكرة التي أثارها آدم سميث عندما قال لا بد من وجود سوق يستوعب ثمانية وأربعين ألف دبوس في اليوم، وقد أشار ابن خلدون إشارة قوية إلى موضوع الأسواق الخارجية، يقول ابن خلدون: "أهل المدينة أو المصر إذا وزعت أعمالهم كلها على مقدار ضرورتهم وحاجاتهم اكتفى فيها بالأقل من تلك الأعمال وبقيت الأعمال كلها زائدة على الضرورات، فتصرف في حالات الترف وعائده وما يحتاج إليهم غيرهم من أهل الأمصار ويستجلبونه منهم بأعواضه وقيمه فيكون لهم بذلك حظ من الغنى".¹²

وقد أوضحنا في مقابلة سابقة لعبارتي آدم سميث وابن خلدون ذلك التشابه المتقدم في مفهومهما لتقسيم العمل، ويمكن الوصول من خلال تحليل ما قاله ابن خلدون في تقسيم العمل إلى الحقائق الآتية:

أولاً: إن تخصيص العمل وتقسيمه "التعاون" ضرورة إنسانية اجتماعية نابعة من عجز الفرد الواحد على سد حاجاته ورغباته بمفرده، بينما يرجع آدم سميث هذا إلى رغبة فطرية نحو التبادل.¹³

ثانياً: يؤدي تقسيم العمل إلى الزيادة السكانية التي ينتج عنها زيادة في التخصص والتأهيل مما يؤدي إلى وجود فائض نتيجة التعاون يتطلب تصريف المنتجات عن طريق ما يسمى بالمنافذ بين المدن أو البلدان، أي وجود أسواق جديدة لتصريف هذا الفائض.

وهذه الفكرة هي التي ساد الاعتقاد بأن أول من أوضحها هو آدم سميث.

ثالثاً: توصل ابن خلدون إلى نوعين أساسيين لتقسيم العمل؛ التقسيم الاجتماعي وهو توزيع الأعمال بين الناس، والتقسيم الفني داخل العملية الإنتاجية الواحدة وقد وضح هذه الأخيرة في مثال "قوت يوم من الحنطة" بينما ركز آدم سميث بصفة أساسية عن التقسيم التقني للعمل، وهكذا يتبين بكل موضوعية علمية أن مساهمة ابن خلدون في موضوع تقسيم العمل قد فاق ما قدمه رائد الاقتصاد المعاصر آدم سميث.

2-2. الحافز الاقتصادي أساس التقدم عند ابن خلدون.

الحافز الاقتصادي هو المحرك الرئيسي في الاقتصاد الرأسمالي، ولقد أطلق عليه آدم سميث كما رأينا تسمية "اليد الخفية"، وقد استخلص آدم سميث أن هناك يد خفية تقود الفرد وتدفعه إلى بذل الجهد للزيادة من الثروة التي توصله إلى التقدم والرفعي، وهذا الحافز هو المصلحة الذاتية في نظر آدم سميث.

وابن خلدون قبل آدم سميث بأربعة قرون يعتبر الحافز الاقتصادي أساس النمو المؤدي إلى التقدم والتحضّر.

يقول ابن خلدون: "وإذا قلت الوزائع والضرائب على الرعايا نشطوا ورغبوا فيه فيكثر الاعتماد ويزداد حصول الاغتباط بقلة الضريبة، وإذا كثر الاعتماد كثرت إعداد تلك الوظائف وكثرت الجباية التي هي من جملتها"¹⁴.

فكهننا يبين ابن خلدون أن الحافز الاقتصادي يزداد عندما تقل الضرائب ويطلق عليه عبارة "الاغتباط" أي زيادة الأمل كما يسميه في عبارات أخرى.

وهذا الأمل يؤدي إلى زيادة النمو وزيادة المشاريع الإنتاجية "الوظائف" ويستنتج بأن هذا الحافز يؤدي إلى زيادة جباية الدولة بالرغم من تخفيض الضرائب.

وفي عبارة أخرى يبين ابن خلدون أن ضعف الحافز الاقتصادي يؤدي إلى كساد الأسواق، والتعطيل من الحركية الاقتصادية التي هي أساس معاش الناس وتقدمهم فيقول: "...يزيد ذلك في أواخر الدولة زيادة بالغة فتكسد الأسواق لفساد الآمال ويؤذن ذلك باختلال العمران."¹⁵

ويتبين من هذه العبارة الصريحة أن ضعف الحافز الاقتصادي يؤدي إلى كساد الأسواق وذلك لذهاب آمال الناس، لأن قوة ما تتدخل لتفسد دافع المصلحة الذاتية، فعندما يعتقد الناس بأن جهودهم لا تعود على مصالحهم الذاتية، وأن جزء أو كل الجهود المبذولة تذهب ظلماً إلى ذوي القوة من أصحاب الجاه والسلطان فإن ذلك الدافع الخفي كما يسميه آدم "اليد الخفية" تتراجع قوتها عن الدفع شيئاً فشيئاً حتى نشل حركة الدفع نهائياً.

وفي عبارة عن الظلم يحلل ابن خلدون أثر الحافز الاقتصادي بعلمية فائقة النظر. ويتتبع مراحل ضعف الحافز الاقتصادي وما ينجم عليه من آثار اقتصادية بالغة الخطورة عن الفرد والمجتمع، ولعل المطلع على هذا التحليل الاقتصادي البديع في هذا الزمن البعيد، العصور الوسطى المسماة بعصور الظلام يعترف لابن خلدون بالريادة والعلمية وفضل السبق في هذا الموضوع، وسنورد هذه العبارة التي لا تحتاج منا إلى تعليق كبير فهي واضحة المعالم في موضوع الحافز الاقتصادي.

يقول ابن خلدون: "أعلم أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لما يروونه حينئذ بأن غايتها ومصيرها انتهى بها من أيديهم، وإذا ذهب آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك على قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن السعي في الاكتساب، فإذا كان الاعتداء كثيراً عاماً في جميع أبواب المعاش كان القعود عن الكسب كذلك لذهابه بالآمال جملة... فإذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت أيديهم عن المكاسب كسدت أسواق العمران وانقبضت الأحوال وابدع الناس في الآفاق من غير تلك الأيالة في طلب الرزق."¹⁶

إن ما جاء في هذه العبارة هو أدق ما كتب عن الحافز الاقتصادي وعن الآثار الاقتصادية المرتبطة به، والتي بلغت ليس آثار الحافز فحسب بل حركية مجتمع بكامله.

خاتمة :

إذا كان من المسلمات في الفكر الأوربي أن ما جاء به آدم سميث في المصلحة الذاتية أو اليد الخفية هي سبب ريادة آدم سميث لعلم الاقتصاد، وإذا كانت الفكرة المحورية التي يدور حولها الحافز الاقتصادي عند ابن خلدون تتشابه بما جاء به آدم سميث في نفس الموضوع إلى حد التطابق¹⁷. وإذا كان ماجاء به ابن خلدون في هذا الموضوع يسبق ماجاء به آدم سميث بأربعة قرون وعلى ذلك فإن الريادة التاريخية في موضوع الحافز تعقد لابن خلدون، وإذا كانت الأبوة لعلم الاقتصاد من أسباب القول بها ما جاء عن الحافز فإن هذه الأبوة تكون لابن خلدون.

¹ راشد البراوي، تطور الفكر الاقتصادي، دار النهضة العربية، القاهرة. 1992. ص 83.

² المقدمة. دار القلم بيروت. 1976، ص 381 .

³ راشد البراوي، مرجع سابق، ص 85.

⁴ جورج نايهانز، ترجمة أحمد صقر، تاريخ النظرية الاقتصادية، الاسهامات الكلاسيكية،

المكتبة الأكاديمية، القاهرة، 1998. ، ص 110

⁵ روبرت هيلبروز، قادة الفكر الاقتصادي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1989، ص 69.

⁶ المقدمة، مرجع سابق، ص 41.

⁷ شومبيتر، جوزيف، عشرة اقتصاديين عظام، ترجمة راشد البراوي، مكتبة النهضة المصرية، 1986، ص 88.

⁸ جون كينيث جابريث، تاريخ الفكر الاقتصادي، الماضي صورة الحاضر، ترجمة أحمد

فؤاد بليغ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2000، ص 72.

⁹ نفس المرجع السابق، ص 72.

¹⁰ أحمد شوقي دنيا، ابن خلدون مؤسس علم الاقتصاد، دار معاذ للنشر والتوزيع،

السعودية، 1993. ، ص 30.

¹¹ المقدمة - مرجع سابق ، ص 360.

¹² المقدمة، مرجع سابق، ص 360.

-
- ¹³ محمد ليس شقير، تاريخ الفكر الاقتصادي، دار النهضة للطباعة والنشر، مصر، 1988، ص 110
- ¹⁴ المقدمة، مرجع سابق، ص 350.
- ¹⁵ المقدمة، مرجع سابق، ص 201.
- ¹⁶ المقدمة، مرجع سابق، ص ص 286، 287.
- ¹⁷ رفعت السيد العوض، تراث الملمين العلمي في الاقتصاد، مركز صالح عبد الله كامل، القاهرة، 1998، ص 103.